

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

منهج الرسول في التغيير الاجتماعي دراسة مقارنة

محمود سامي قاسم
محمد بن عبدالله البرعي

مقدمة :

ظهرت في الآونة الأخيرة صحوة اسلامية واسعة شملت معظم العالم الاسلامي، جوهرها الرجوع الى الاصلية وتحكيم شرع الله في كافة الامور الدينية والدنيوية. ولم تأت هذه الصحوة من فراغ، بل استمدت جذورها من سلسلة الفشل الذي واجه قادة الامة العربية والاسلامية من جراء تطبيقهم لنظريات ونماذج وأيديولوجيات مستوردة وبعيدة كل البعد عن واقع وطموح الشعوب العربية والاسلامية، فجاءت هذه النماذج هزيلة وضعيفة، بل وقد كان لها آثارا سلبية على شعوب المنطقة. ونتيجة لذلك، وبعد فشل كافة الحلول المستوردة من اشتراكية وشيوعية ورأسمالية وغيرها، ظهرت على الساحة صيحات الغيورين على دينهم وأمتهم ينادون بالرجوع الى التراث الاسلامي

العريق والى ينايع الهدى النبوى الصافية ولسان حالهم يقول اننا استوردنا مافيه الكفاية ولم نتحصل على نتائج ايجابية البتة . فكانت هذه الصيحات بداية الأصالة فى التفكير، والرجوع الى الفكر الاسلامى الخالد لاستخلاص الدروس والعبر والاستفادة منها فى عصرنا الحاضر(١) .

ولقد وجد الباحثان ان هناك فجوة فى مجال التغيير الاجتماعى لم يتطرق اليها الباحثون ، وبالتحديد حول دور الرسل فى التغيير ، فأخذا على عاتقهما هذه الدراسة كخطوة أولى تتبعها ان شاء الله دراسات أخرى حول منهج الانبياء فى التغيير الاجتماعى الشامل لمجتمعاتهم .

لقد كان الرسل مفخرة الازمان وأهلا لقيادة الأمم والشعوب ونماذج حية يحتذى بها عبر الازمان . ولقد صنعوا على عين الله وتحت رعايته . وان تاريخهم هو تاريخ العظمة والجلال، وحياتهم حياة الكفاح والنضال ، ومهما أوتى البشر من قوة فلن يستطيعوا ان يدركوا شأن الرسل، أو يصلوا الى ماوصلوا اليه من سمو فى النفس ، وكمال فى الخلق، وزهد فى الدنيا، وحب للآخرة، وتضحية فى سبيل الله . انه تاريخ مشرف، مليئى بأنواع البطولات ، وألوان الصبر والشجاعة الفذة التى قلّ أن يوجد مثلها فى حياة زعيم او عظيم ، أو قائد أو مصلح (٢) . ونظرا لتشعب الموضوع واتساع رقعته واستحالة التمكن من الأحاطة بجميع الانبياء والرسل ومناهجهم فى احداث التغيير الاجتماعى الشامل فى مجتمعاتهم فى مثل هذا البحث المحدود، رأينا أن نكتفى بدراسة منهج النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) ونقدمه كنموذج لما يمكن ان نستخلصه من دراسة بقية الرسل الكرام عليهم الصلوة والسلام .

منهج البحث :

١ - مقدمة :

يذكر الاستاذ مايكل هارت (٣) ، الباحث الأمريكى الذى استعرض الرجال العظماء فى التاريخ عبر كتابه ,,المائة : تقويم لأعظم الناس أثرا فى التاريخ,, انه اختار محمدا صلى الله عليه وسلم على رأس القائمة لأنه كان أعظمهم وأعمقهم وأوسعهم أثرا . وانه لم يحدث فى التاريخ كله ان اكتمل دين بكل عناصره الفلسفية والاخلاقية والتشريعية والسياسية والاقتصادية سوى الاسلام . وان هذا الدين قد اكتمل تماما فى حياة صاحب الدعوة اليه وانتصر فى حياته وهو مالم يحدث لأى دين آخر . وقد اتسع هذا الدين وشمل المعمورة بعد وفاته حتى أصبح المسلمون يقدرون بألف مليون مسلم فى الوقت الحاضر .

ونحاول فى هذا البحث - بعد اعطاء صورة موجزة عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم واعداده لتحمل القيادة أن نعرض عدة اسئلة مستوحاة من واقع ادبيات التغيير التنظيمى والاجتماعى . وهذه الاسئلة تقابلها اجابات مختصرة ومركزة من واقع السيرة النبوية . ويجب أن ننوه هنا بأننا لسنا من كتاب التاريخ او السيرة النبوية ، بل مجالنا هو الادارة ، فالسيرة بحر عميق ولها كتابها ومؤرخوها المتخصصون ، لذا، فما يهمننا نحن فى هذا البحث بالذات يكمن فى الدروس والمواعظ المستقاة . وللقارئ الذى يريد المزيد فهناك الدراسات المستفيضة فى السيرة النبوية الشريفة والدراسات الحديثة فى موضوع التغيير التنظيمى والاجتماعى المكتوبة باللغتين العربية والانجليزية للاطلاع والبحث فى الامور التى تدرج خارج نطاق هذه الدراسة المحدودة (٤) .

ب - ماهية التغيير الاجتماعى :

أجمع المتخصصون فى مجال التغيير التنظيمى على تعريفين شاملين لماهية التغيير الاجتماعى . ويجب التنويه هنا انه بالرغم من وجود الفارق فى وحدة التحليل - المجتمع فى حالة الرسل، والمنشأة فى حالة التغيير التنظيمى - الا ان منهج التحليل لا يفترق فى كلتا الحالتين، ففى نظرهم التغيير الاجتماعى :

- ١ - هو الجهد المبذول المخطط، الشامل ، الموجه من أعلى لزيادة فعالية المنشأة او المجتمع عن طريق التدخل المخطط مستخدما المعرفة المتعلقة بعلم السلوكيات، والبيانات المستوحاة من واقع المنشأة وسلوكيات افرادها (٥).
- ٢ - طرق تغيير المنشأة من حالتها الراهنة الى حالة أكثر نموا وتطورا، وذلك بواسطة تحليل النظم والمعلومات وتطوير وتنمية العلاقات السائدة بين المنظمة والبيئة المحيطة بها، بين الجماعة وجماعة أخرى، بين الفرد والمنظمة، وبين الفرد وأخيه (٦) .

وطالما أن هذين التعريفين بمثابة آخر ما توصلت اليه العلوم الاجتماعية فى الغرب حول موضوع التغيير الاجتماعى، فسوف نرى فى هذا البحث فيما اذا كان هناك فعلا أى شىء جديد فى هذا المجال أم ان القضية قديمة قدم الأنبياء أنفسهم الذين مارسوا نفس الطرق المستعملة فى أواخر القرن العشرين . ان الاعتقاد السائد بأن أهم محور للتنمية هو الانسان قديم منذ الأزل . فالقادة والمصلحون والأنبياء منذ قديم الزمان وشغلهم الشاغل هو تنمية الانسان والارتقاء به من الجاهلية الى الاسلام، ومن الظلام الى النور، ومن الظلم الى العدل ، ومن عبادة

الطواغيت الى عبادة الله الواحد القهار . فهل من جديد فى عالم اليوم (٧) ؟ هذا ماسنراه فى صفحات هذا البحث .

ج - ,,قائمة المراجعة ,, أو الأسئلة الجوهرية :

اضافة الى التعريفين السابقين الشاملين ، فان هناك عدة أسئلة مستوحاة من ادبيات التغيير التنظيمى الشامل وتمثل فى مجملها ,,قائمة المراجعة,, (Check List) لكل المهتمين بهذا النوع من التغيير التنظيمى الحديث وكيفية تطبيقه على المنشآت بشكل خاص أو المجتمعات البشرية بشكل عام .

ان المهمة الأساسية لكل قائد هى احداث تغيير فى المحيط الذى يعمل أو يعيش فيه . ولكى تتم عملية التغيير بنجاح، يجب على القائد ان يضع نصب عينيه مجموعة من الأسئلة الجوهرية، اجابته العملية عليها هى التى تحدد منهجه الخاص فى القيادة . هذه الاسئلة هى :

١ - من هم جمهورى أو أتباعى ؟ ولمن أرسلت ؟

٢ - ما هو الوضع الراهن لقومى ؟ وما هو مدى رضاهم أو سخطهم عنه ؟

٣ - ما هو الوضع الأمثل الذى أدعو أتباعى اليه ؟ ماهى معالم الحياة الطيبة ؟

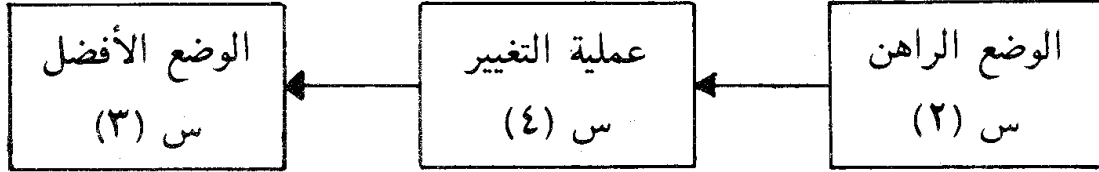
٤ - ما هو منهجى فى احداث عملية التغيير من الوضع الحالى الى المستقبل الأفضل ؟

- كيف ابدأ السير وأنهيه بنجاح ؟ كيف أقنع قومى بضرورة التغيير ؟ وكيف ارد على اعتراضاتهم وتساؤلاتهم؟

٥ - ماهى الدروس المستفادة ؟

ومن واقع هذه الاسئلة ، يمكن تصور هذا النموذج البسيط وارتباط كل مرحلة ببعض الاسئلة المطروحة :

شكل (١) نموذج التغيير



د - عملية التغيير الاجتماعي في الاسلام : محورها وأبعادها وأفاقها :

ان أى تغيير اجتماعى مهما كان شاملا أو محدودا مالم يستند الى عقيدة يؤمن بها الشعب ويعمل بموجبها ، ويضحى فى سبيلها، ويخضع لمقرراتها، ويلتزم بحدودها، يكون تغييرا غير هادف ، همه أن يزيل شيئا بشيء، أو يحل جديدا محل قديم ، أو يكون تغييرا هدفه الهدم لا البناء، والمحو لا الثبات .

ويكمن عمق التغيير الاجتماعى فى الاسلام فى اغوار النفس البشرية . فتغيير الأنفس ليس بالأمر الهين أو المهمة اليسيرة ، انه ليس كتغيير ملابس أو زى بآخر . ان معناه تغيير الانسان ذاته من حال الى حال : تغيير افكاره ومعتقداته ومشاعره وأهدافه وطرائقه وعاداته وسلوكياته . هذا هو التغيير الاجتماعى الحقيقى ، لانه تغيير ينفذ الى الروح والجوهر ، ولا يقف عند الغلاف والمظهر . وهذه الحادثة التاريخية ... أكبر دليل على ذلك لأنها تبين لنا كيف وضع معلم البشرية قواعد وأسس التنمية الفردية والجماعية ، وتوظيف الموارد البشرية :

،عن أنس بن مالك : أن رجلا من الأنصار جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله . فقال ،،لك فى بيتك شىء ؟ ،،قال : بلى . جلس نلبس بعضه ونبسط بعضه . وقدح نشرب فيه الماء . قال ،،اثنى بهما ،، قال ، فأتاه بهما . فأخذهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده . ثم قال ،،من يشتري هذين؟ ،،فقال رجل : أنا آخذهما بدرهم . قال ،،من يزيد على درهم ؟ ،،مرتين أو ثلاثا. قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين . فأعطاهما اياه وأخذ الدرهمين، فأعطاهما الأنصارى ، وقال ،،اشتر بأحدهما طعاما فانبذه الى أهلك . واشتر بالآخر قدوما، فأثنى به ،، ففعل . فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم فشد فيه عودا بيده وقال ،،اذهب فاحتطب ولا أراك خمسة عشر يوما ،، فجعل يحتطب ويبيع . فجاء وقد أصاب عشرة دراهم . فقال ،،اشتر ببعضها طعاما وبيعضها ثوبا ،، . ثم قال ،،هذا خير لك من أن تجيء والمسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة . ان المسألة لاتصلح الا لذى فقر مدقع، أو لذى غرم مفضع أو دم موجه (٨) ،، .

ان الاسلام وان كان قد ركز على بناء وتنشئة الفرد المؤمن ككل (كيان متكامل) لم يغفل الجماعة التى ينتمى اليها وسائر لبنات المجتمع الاسلامى الأخرى (كالأسرة، المنشأة ، والدولة، والأمة) .. فالاسلام نظم مسائل الزواج والطلاق والميراث كما نظم علاقات العمل وأحكام الزكاة والجهاد تنظيما دقيقا مما جعله دينا شاملا ومنهجيا كاملا يغطى كافة نواحي الحياة الانسانية . وهذا التغيير الجذرى الشامل الذى احدثه الاسلام لم يتم الا بوسيلة واحدة وهى الايمان ... الذى صنع من قبائل العرب المتنافرة خير أمة أخرجت للناس وجعلهم صانعى حضارة مجيدة لازالت آثارها باقية الى يومنا هذا . وان دل هذا

على شيء فانما يدل على مدى شمولية وعمق التغيير الاجتماعى الذى أتى به الاسلام .

هـ - أهمية القيادة فى التغيير الاجتماعى :

لا يخلو أى كتاب او بحث فى التغيير الاجتماعى والتنظيمى عن التصريح أو التلميح عن دور القيادة فى انجاح عملية التغيير المنظم والتغيير الاجتماعى بشكل عام . لذا، فاننا نجد أن الكثير ممن قاموا بعمليات تغيير جذرية فى مجتمعاتهم أو منظماتهم هم قادة أخذوا على عاتقهم البحث عن نموذج أفضل للحياة الطيبة واسلوب أفضل ليحقق هذا التصور والعيش بمقتضاه وتحملوا مسؤولية الاحداث الكبرى التى دعوا اليها . لذا ، فانه من المستحيل ايجاد تغيير اجتماعى شامل فى غياب القيادة الفعالة التى تدير الكفة وتسعى لاحداث هذا التغيير .

والسؤال الذى يمكن طرحه هنا هو : ما هو مصدر هذه القيادة ؟ هل تأتي من داخل المجتمع أو من خارجه ؟ وكيف يمكن اعدادها لتحمل المسؤولية وتغيير مجرى الاحداث . لقد وجدنا فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم نمودجا مثاليا للقائد الناجح الذى أخذ على عاتقه مسؤولية اكبر تغيير حدث فى التاريخ بشهادة الأعداء قبل الاصدقاء .

اعداد الرسول لتحمل القيادة :

ان القارئ المتأمل لحياة محمد ، صلى الله عليه وسلم ، يرى ان الرسول مر بعدة مراحل هامة فى حياته أهمها من ناحية الاعداد للرسالة وتحمل القيادة والمسؤولية مايلى:(٩) .

١ - رعيه الغنم :

لقد عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم - عندما اشتد عوده - برعى الغنم ، فكان يخرج بأغنامه الى المرعى

ويعيش فى احضان الطبيعة الموحية ، لايقع بصره الا على بديع خلق الله الذى لا أثر ليد الانسان فيه، فيتأمل ... ويفكر ... فيكون مردود تأمله وتفكره صفاء فى النفس ، وشفافة بالروح، ومسحة صادقة من الايمان ... يعيش طيلة يومه مع أغنامه، فيرد الشارد منها الى الجماعة ، وليعلمها برفق الطاعة ، ويحرسها من الذئب الطاغى الظالم ... يرتحل بها عن مواقع الجذب، ويوردها موارد الخير والرخاء ... تماما ... تماما ... كما يفعل القائد البارّ بشعبه . ومن أقواله صلى الله عليه وسلم: ,,مابعث الله نبيا الا راعى غنم,, فقال له أصحابه : وأنت يا رسول الله؟ قال: ,,وأنا راعيتها لأهل مكة بالقراريط ,, . وقال أيضا : ,,بعث موسى عليه السلام وهو راعى غنم ، بعث داود عليه السلام وهو راعى غنم، وبعثت وأنا أرعى غنم أهلى بأجباد ,, .

٢ - الخلوة بنفسه :

حبب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الخلوة بنفسه قبيل بعثته بسنوات قليلة ، فكان يخرج الى غار حراء - ذلك المكان المرتفع المشرف المنقطع عن الناس ، فيخلو فيه فى كل سنة شهرا يصفى نفسه من كل غل وحقد وحسد وضغينة، ويسمو بروحه بعيدا عن الأصنام وجوّها الخائق ، وبعيدا عن صخب المدينة بكل ما فيها من تسلط الأقوياء على الضعفاء، واحتيال الأذكياء على الاغنياء . فاذا ما انتهت خلوته نزل من غارحراء الى الكعبة المشرفة، فطاف فيها ماشاء الله له ان يطوف ، ثم ينصرف الى بيته . واستمر على هذه الحالة فى شهر رمضان من كل سنة حتى جاءه الوحي ونزل عليه القرآن الكريم . ان هذه الخلوة كان لا بد منها لرسول الله الذى سيستلم القيادة عما قليل، حيث تصبح القوة والسلطان بيده ، قوله هو الفصل ، وكلمته

هى النافذة ، ورجل هذا شأنه كان تطهر قلبه من كل غل وحقد وضغينة أمر لا بد منه ، ليكون أبعد ما يكون عن الحقد على شعبه ، ويعامله بالرحمة اكثر من معاملته له بالسلطان، ليقبل من المحسن منهم احسانه، وليتجاوز عن المسيئ، ولذلك ارشد الله رسوله الى ممارسة هذه الرياضة الروحية قبل توليه القيادة ، ليكون بالناس رؤوفا رحيفا من اليوم الأول الذى يستلم فيه القيادة .

٣ - الاشتغال بالتجارة :

ان السنوات التى اشتغل بها النبى محمد صلى الله عليه وسلم قبل بعثته بالتجارة اكسبته خبرة عظيمة فى التعامل مع الناس وابرز صفات الأمانة والصدق والاخلاص حتى ربحت التجارة التى كان يعمل بها . اضافة الى ذلك ، فقد سافر الى الشام مع عمه أبى طالب حين كان عمره اثنى عشرة سنة، ثم سافر بتجارة خديجة أيضا الى الشام حين كان عمره خمسا وعشرون سنة واقام فى تلك البلاد مدة من الزمن توسعت فيه آفاقه، واطلع فيها على أحوال العباد والبلاد ، ورأى نماذج من الناس يختلفون فى عاداتهم وتقاليدهم عن بنى قومه فى ارض الحجاز .

وكان هذا التأمل والتعرف أمرا لا بد منه ، لأن محمدا لن يكون قائدا ورسولا لأهل الحجاز وحدهم ، بل سيكون قائدا ورسولا لجميع الأمم، ،وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن اكثر الناس لا يعلمون « (١٠) فلا بد ان يطلع على هذه النماذج ويتعرف عليها قبل الرسالة .

٤ - الرؤيا الصادقة :

عند ما قرب عهد تسلم محمد القيادة - البعثة - بدئ بمحمد بالرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى في نومه رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح . والرؤيا الصادقة تزيده ثقة بنفسه، خاصة في ذلك الوقت الذي كانت الرؤى فيه تلعب دورا خطيرا في حياة الناس وتصرفاتهم ، فنحن لانزال نذكر ان جد رسول الله لما رأى في منامه أن يحفر زمزم أقبل على تنفيذ ما رآه في منامه دون تردد .

قائمة الأسئلة الجوهرية في التغيير الاجتماعي

رأينا في الصفحات السابقة أهم مراحل أعداد الرسول لتحمل القيادة والمسئولية وتكلمنا باختصار شديد عن رعيه الغنم، الخلوه بالنفس للتأمل، الاشتغال بالتجارة، ووضوح الرؤيا الصادقة لديه قبل بعثته. وكان لا بد لهذه المراحل ان تظهر في حياة الرسول قبل البعثة كنوع من التأهيل والاعداد لاحداث اكبر عملية تغيير في تاريخ البشرية. ذلك لأن مثل هذا التغيير الشامل لا يتم الا بوسيلة واحدة هي الايمان . الايمان الذي صنع من قبائل العرب المتفرقة الممزقة والمتناحرة خير أمة أخرجت للناس ، مما جعل الرسول يبعثهم الى كافة انحاء المعمورة ينشرون الحق، ويدعون الى الخير، ويخرجون الناس من عبادة الخلق الى عبادة الله وحده، ومن ضيق العيش الى سعة الحياة، ومن جور الاديان والظلام الى عدل الاسلام ونور اليقين .

وسنفرد الآن الصفحات التالية للبحث والتأمل والتحليل في ديناميات عملية التغيير هذه وكيف تمت مستنديين على قائمة الاسئلة التي ذكرناها سابقا والمستوحاة من أدبيات التغيير التنظيمي الحديث

(١١)، ثم نتبعها بتحليل لأهم الدروس المستقاة من سيرة الانبياء . وهذا ما يميز - فى رأينا - بحثنا ومنهجنا عما كتب فى ادب السيرة من ناحية وأدبيات التغيير التنظيمى والاجتماعى الشامل من ناحية أخرى اذ ان كل واحد من هذين المنهجين يدور فى فلكه الخاص مستخدما لغته المتخصصة .

السؤال الأول : من هم جمهورى أو اتباعى ؟ ولمن أرسلت ؟

لكى يكون التغيير الاجتماعى الشامل فعالا ومؤثرا، يجب على القائد تحديد الاتباع أو الشريحة الاجتماعية المراد تغييرها . لذا، نجد ان دعوة الاسلام التى جاء بها الرسول محمد تختلف عن بقية الدعوات السابقة فى كونها غير محدودة أو موجهة لشعب معين ، أو قبيلة معروفة، أو عشيرة محدودة أو قرية بعينها . بل جاءت هذه الدعوة للناس كافة ، والدليل على ذلك قوله سبحانه وتعالى : ,,وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا، (١٢) ، ,,وما أرسلناك الا رحمة للعالمين، (١٣) ، ,,وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن اكثر الناس لا يعلمون، (١٤) .

وهناك الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة تبين أن الرسول أرسل للناس كافة ولم يرسل لقريش وحدها أو العرب دون سواهم . لذا، قام الرسول بارسال الوفود والارساليات الى ملوك الحبشة واليمن والفرس والروم وغيرهم لدعوتهم الى الاسلام . فمنهم من آمن ومنهم من كفر (١٥) .

السؤال الثانى : ماهو الوضع الراهن لقومى ؟ وماهو مدى رضاهم أو سخطهم عنه ؟

ومن الجدير بالذكر ان الرسل نشأوا فى بيئة جاهلية اتسمت بفسادها فقد كانت فى مجملها بيئة وثنية انهمك اهلها فى التفنن فى

وثبتتهم البلهاء، فنوعوها وعدادوا آلهتها واتخذوا لها الانصاب
والتماثيل والاصنام والأوثان، وبنوا لها البيوت والمتعبدات حتى أصبح
لكل قبيلة صنم أو تمثال .

أما اخلاق العرب وعاداتهم الفاشية فيما بينهم فهي فى الاغلب
اخلاق وعادات نبتت من عقائدهم الوثنية وبيئتهم الطبيعية ، فخيرها
يستوحى البيئة ومستلزماتها من الفاقة وضنك العيش وقسوة الحياة ،
فالنجدة والمروءة والوفاء بالعهد وصدق الحديث والشجاعة والكرم
والسخاء والايثار ، والذود عن المحارم ورعاية الجوار ، والحلم والصبر
وسرعة الخاطر وصفاء البديهة وكل ماجرى هذا المجرى مما سجله
تاريخهم ورددته أشعارهم وشاد به أدبهم فضائل كان لها عند العرب
من المكانة مالم يكن لها عند غيرهم من الأمم .

وتلك البيئة نفسها هي التي جعلت من بعض رذائل الفطرة ومقايح
العقول ومناهى الديانات السماوية فضائل محلية . فشرب الخمر
والمقامرة، والفتك ونصر القريب الظالم، وواد البنات واكراه الاماء على
البغاء تكسبا وما اليها عند العرب فضائل يتفاخرون بها، ويعيبون الذى
لا يتحلى بها (١٦) .

أضف الى هذه القائمة الجهل والأمية وحمية الجاهلية الجوفاء
والتقاطع والشحناء وتعصب كل قبيلة لأفرادها والانتصار لهم مهما بلغ
شأنهم، ومن ثم ساد بين العرب فى جاهليتهم النظام القبلى الذى
يعطى الفرد من المكانة مالم يعرف له مثل فى الأنظمة الاجتماعية التى
تنسق فيها الجماعة على نسق نظامى يحكمه قانون ثابت و حكومة
تقوم على تنفيذ ذلك القانون .

هذه صورة موجزة لمعالم الحياة الجاهلية التى مجدها العرب فى
شعرهم ودافعوا عنها بأرواحهم وأموالهم، لاشىء الا انهم ورثوها عن

آبائهم وأجدادهم واستطعموها ولم يجدوا مبررا فى التفكير عن بديل سواها (١٧) .

السؤال الثالث : ماهو الوضع الامثل الذى أدعو اتباعى اليه ؟ ماهى معالم الحياة الطيبة ؟

بادئ ذى بدء يجب على القائد الذى يريد التغيير فى المحيط الذى يعيش فيه وضع تصور واضح لمعالم الحياة فى النظام الامثل فلا يكتفى ان ينتقد القائد الوضع الحالى دون تقديم الحلول البديلة واختيار الأنسب منها. وفى هذه العجالة، سوف نرى كيف عالج الرسول هذه المشكلة وذلك بالاجابة الموجزة على السؤال الذى يدور حول الوضع الأمثل الذى بدأ يدعو اتباعه اليه ، ويوضح لهم كافة تفاصيل معالم الحياة الطيبة التى يدعو اليها الاسلام لتحل محل الحياة الجاهلية بكل سلبياتها .

اشرنا سلفا ان الاسلام يتميز عن غيره من الديانات بانه يقدم منهجا متكاملا للحياة ينظم فيها علاقة الانسان بخالقه (العبادات) أولا ثم علاقته باخيه الانسان (المعاملات) . فالعبادات تشمل الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر وبالقضاء والقدر خيره وشره. واداء ما فرض عليه من صلاة وصوم وزكاة وحج . اما المعاملات فتحتوى على تنظيم دقيق وشامل لكافة شؤون الحياة الدنيوية مثل علاقة الانسان المسلم بزوجه ، وأولاده ، ووالديه وأقاربه، وجيرانه، ودائنيه ومدينيه، ورؤسائه ومرؤسيه . ولم تقتصر المعاملات على علاقة المسلم باخيه المسلم بل تعدتها الى علاقته بغير المسلمين كما وضحتها فريضة الجهاد وعقود الذمة والهدنة والمعاهدة فى كتب الفقه (١٨) .

وقد وعد القرآن الانسان المسلم الذى يعيش حياته حسب هذا المنهج بالتمكين فى الدنيا والجنة فى الآخرة . كما تشير هذه الآية

القرآنية ،، من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون (١٩) . فالعمل الصالح والكلمة الطيبة والنية الحسنة - كلها من العناصر الأساسية التي تشكل في مجملها معالم الحياة الطيبة التي يدعو اليها الاسلام وبشر بها رسوله .

ومتى ماحدد القائد معالم الوضع الأمثل وشرح لأتباعه مزايا الحياة الطيبة، سهل عليه بعد ذلك وضع المنهج المفضل الواجب اتباعه لاحداث عملية التغيير وهو ماسوف نعرضه الآن عند الاجابة على السؤال الرابع .

السؤال الرابع : ماهو منهجى فى احداث عملية التغيير ؟ ان الاجابة على هذا السؤال تقتضى الاجابة على عدة اسئلة فرعية وهى :
كيف ابدأ المشوار وأنهيه بنجاح؟ وكيف اقنع قومى بضرورة التغيير ؟ كيف ارد على اعتراضاتهم ومقاومتهم؟ هل يكون التغيير تدريجيا ام دفعة واحدة؟ هل هناك اتجاه افضل وعمق معين أو اسلوب أمثل (الشدة او اللين) ، لنجاح عملية التغيير ؟

عند تحليل السيرة النبوية الكريمة، وجدنا أن هناك اجماعا بين كتاب السيرة (٢٠) على ان النبى محمد صلى الله عليه وسلم قضى ثلاث سنوات فى الدعوة السرية لأهله والأقربين اليه وخاصته ومن يرى فيهم القبول والدعم لرسالته . وكان أول من أجاب الرسول لدعوته زوجته خديجة ومولاه زيد بن ثابت وابن عمه على بن ابى طالب وصاحبه أبوبكر الصديق، وقد اسلم هؤلاء فى أول يوم من الدعوة .

وقد تميزت هذه المرحلة السرية بالاتصال الشخصى المباشر والفردية فى الدعوة . وبهذا الاسلوب تمكن الرسول من محاوره الرعيل الاول من اتباعه ومناقشة أفكارهم والرد المباشر على

احتجاجاتهم وتساؤلاتهم والتغلب على اعتراضاتهم وسخطهم .. مما أدى فى النهاية الى اقناعهم برسالته وكسب ثقتهم وخلق جماعة من المؤمنين تقوم على الاخاء والتعاون وتبليغ الرسالة . وكانت هذه العصبية المؤمنة بمثابة السند القوى Critical Mass لمحمد تساعده فى بداية المشوار وتنشط فى دعوة من ترى فيه الخير والصلاح حتى بلغ عدد السابقين الأولين اكثر من أربعين فردا . ثم نزل الوحي بتكليف الرسول بعلائية الدعوة لقومه ومجابهة باطلهم ومهاجمة أصنامهم ,, وأنذر عشيرتك الأقربين» (٢١) .

وبهذا التكليف بدأ النبى المرحلة الثانية فى نشر دعوته والتي تميزت بالعلائية والسلمية والاتصال الشخصى المباشر والتي استمرت مايقرب من عشرة اعوام داخل مكة وخارجها وحظت بنصيبها من التأييد والمعارضة شأنها شأن سائر الدعوات الأخرى . ومن أهم معالم تلك المرحلة التى سجلها تاريخ السيرة ان النبى صعد على الصفا يدعو القبائل (قريش وبنى فهر، وبنى عدى) الى الاسلام . كما وانه عرض الاسلام على الوفود فى موسم الحج، وعلى اهل الطائف وعلى القبائل والافراد كالأوس والخزرج .

وكان القرآن السند لمحمد - النبى الأمى - فى اقناع العرب الاوائل برسالته. فهو المعجزة الخالدة التى تحدث بلغاء العرب وفصحائهم بالاتيان بمثله أو بسورة منه . (٢٢) ولم ينجح أحد فى مجابهة هذا التحدى الذى مازال قائما حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

أما عن اعتراضاتهم وتساؤلاتهم فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم مثالا لسعة الصدر والصبر على الأذى والاقناع والحلم والأناة. وقد وصفه القرآن بصفات كثيرة مثل الخلق العظيم . اللطف وعدم

الغلظة والفظاظة، والتسامح ... وغيرها مما يضيق المقام بسرده . وتدور كثير من آيات الكتاب الحكيم حول اسئلة كثيرة سألها قومه عن امور تتعلق بالحياة الدنيا وأمور تتعلق بالآخرة مثل السؤال عن الأهله، والنفقة، والشهر الحرام ، والخمر والميسر والمحيض، وماذا أحل لهم من الطيبات ، والانفال وذى القرنين، والجبال. أيضا سألوا عن الروح، والساعة ويوم الدين . (٢٣)

وقد نجح الرسول كثيرا فى اجتذاب المعارضين بالاجابة الشفهية المباشرة على مثل هذه الاسئلة يؤيده فى ذلك الوحي مما أغاظ الكفار وجعلهم يكيدوا له فى السر والعلانية .
معالم التغيير الذى احده الرسول:

سرعة التغيير : وقد برز النبى فى دور القائد ورجل التغيير كأحسن ما يكون، فكان التغيير فى السلوك والعادات تدريجيا كما هو الحال فى قضية الخمر التى كانت متأصلة فى العرب قبل الاسلام وفى بدايته. وكلنا نعرف كيف عولجت قضية الخمر والمراحل التى مرت بها حتى أتى التحريم النهائى بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » (٢٤) .

اتجاه التغيير : كانت الرسالة المحمدية امتدادا لرسالة التوحيد التى جاء بها المرسلون الأولون والأنبياء السابقون فهى مكملة للأديان السابقة و متممة لها وهدفها الارتقاء بينى آدم لمافيه الخير والسعادة فى الدارين . أيضا دعوتهم وانتشالهم من براثن الجاهلية الظلماء الى نور الاسلام، ومن ضيق الأديان الى سعة الاسلام، ومن عبادة العباد والحجارة والأوثان الى عبادة الواحد الديان .

عمق التغيير : لاشك ان التغيير الاجتماعى الذى جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين كان تغييرا عميق الجذور، كان محوره الانسان - وهدفه ان

يرقى بالنفس البشرية من أسفل سافلين الى أعلى عليين . ومن هذا المنطلق يتبين لنا ان رسالة محمد لم تكن ثورة أو انقلاب انما هي انقلاب على النفس البشرية لاصلاحها وتهذيبها والارتقاء بها من الحيوانية الضالة الى الآدمية المعززة المكرمة . مصداقا لقوله تعالى : ,,ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم « (٢٥) . وهذا ما يفسر لنا فشل الكثير من خطط التنمية فى الدول الاسلامية النامية والتي تسعى الى استيراد اساليب التقنية الغربية والنهوض بالبنية الاساسية دون التركيز على تنمية المواطن وتهذيب نفسيته واخلاقياته .

الحوافز للتغيير وقبوله : وكما ذكرنا سابقا، فانه كلما كان التغيير جذريا كانت المقاومة عنيفة وقوية وشديدة . ذلك ان كل فرد غنيا كان ام فقيرا يشعر ان التحول الى الوضع الجديد يمثل مخاطرة عالية التكاليف ومحدودة الفائدة .

ان عملية تغيير العادات والمعتقدات والقيم والسلوك عملية صعبة للغاية غالبا ماتقابل بالمقاومة والمعارضة وذلك لالف الناس على ما اعتادوا عليه ولصعوبة التأقلم على ما هو جديد وحديث . وقد كان جواب الكفار حينما يدعون للايمان يأخذ اتجاهها واحدا وهو الاعراض والتقليد الأعمى لأفعال آبائهم . فعندما قال ابراهيم لايه وقومه: ماتعبدون ؟ ,,قالوا نعبد أصناما فنظّل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم اذ تدعون ؟ أو ينفعونكم أو يضرون ؟ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون« (٢٦) . وفى سورة الزخرف ,,بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون« (٢٧) .

الا ان هذا الاعراض وهذه المقاومة ماتلبث ان تضعف عندما ترى طريقة الداعية ، وتلاحظ القدوة الحسنة فيه . فلا يتم كسب ثقة الآخرين

واقناعهم بمجرد الموعظة والأوامر، ولكن بواسطة السلوك وعمل ما يأمر به هو قبل الآخرين . فالرسول لم تبهره الدنيا وشهواتها ولا المادة ومغرياتها ولا القوة وبريقها .. ولم ينه الناس عن خلق ويأتي بمثله بل كان ملتزما بما يدعو اليه سلوكا وخلقاً وكان دائماً على خلق عظيم كما وصفه رب العالمين . وبذلك قلده المسلمون واتخذوه علماً لهدايتهم وكان ذلك من اسباب سرعة انتشار الاسلام لافى الجزيرة العربية فحسب بل وخارجها ايضا .

وربما نتساءل هنا عن الكيفية التى تغلب بها الرسول صلى الله عليه وسلم على المقاومة والمخاوف التى تجتاح قومه ؟ للإجابة على هذا السؤال باختصار شديد يفرضه المقام نورد مايلى :

١ - الوعد الصادق لهم بالتمكين فى الدنيا والآخرة عن طريق الوحي ،،ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التى كنتم توعدون»، (٢٨) . ،،وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله اكبر ذلك هو الفوز العظيم»، (٢٩) ،،من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحييناه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون»، (٣٠) .

٢ - دور البينات والآيات والمعجزات التى قام بها الرسل قبل محمد ثم نزل القرآن وهو اكبر معجزة جاء بها النبى الأسمى ليبدد مخاوف قومه ويرد على استفساراتهم وتساؤلاتهم . فمثلاً جاء موسى عليه السلام بمعجزات السحر الذى برع فيه قومه ، وجاء عيسى بعده بمعجزة الطب . اما النبى فقد جاء بكتاب آية فى البلاغة مع انه أسمى لا يقرأ ولا يكتب . وفيه تحد واضح لبلاغ

العرب وفصحائهم الذين أخذوا أى مأخذ بفصاحة وبلاغة القرآن الكريم (٣١).

٣ - تأييد الله المطلق لرسوله الكريم ماديا ومعنويا فى كافة الأمور ومن بينها المعارك التى قاتل فيها ملائكة من السماء فى صف الصحابة . . . فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها، (٣٢). وفى نفس السورة ،، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ،، (٣٣) ومن الادلة على تثبيت الرسول قوله تعالى ،، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا،، (٣٤).

ولولا هذا التأييد الالهى والعضد السماوى لاصبح محمدؐ مجرد مصلح اجتماعى وشخصية تاريخية فقط أثرت فى التركيبة الاجتماعية السائدة فى الجزيرة العربية . وعلى الرغم من تأكيد القرآن والرسول نفسه للصفة البشرية العادية ،، قل انما انا بشر مثلكم يوحى الىّ ،، (٣٥) - الا ان كتب السيرة النبوية زاخرة بالحوادث التى تدل على تمتع الرسول بصفات فائقة للعادة وهبها الله اياه وميزه بها عن سائر خلقه - مثل حادث الاسراء والمعراج وحادث الهجرة وخروجه على المجتمعين لقتله وعدم روئيتهم له .. هذه الحوادث وغيرها مما فصلته كتب السيرة جعلت محمداً اكثر من مصلح فهو رسول يحترمه الاعداء والاتباع وأضفت على قيادته الخاصة الكاريزمية أو الزعامة الملهمة (٣٦) .

٤ - صفات الرسول الفذة التى أكسبته احترام وتقدير الآخرين (الامانة، الصدق، الشهامة، الشجاعة، العفو، الحلم، الفصاحة والبلاغة، الوفاء بالعهد، الصبر، الحياء، العدل ، التواضع) . وهذه

الصفات ما اكتملت فى شخص واحد كما اكتملت فى الذات
المحمدية وهذه معجزة فى حد ذاتها . ولتعتبر على سبيل المثال
صفة التواضع والبعد عن التكبر .

كان الرسول فى بعض اسفاره فأمر باصلاح شاة فقال رجل :
على ذبحها، وقال الآخر : على سلخها، وقال الثالث : على
طبخها . فقال صلى الله عليه وسلم: وعلى جمع الحطب، فقالوا:
نحن نكفيك . فقال : قد علمت انكم تكفونى ولكنى اكره ان
أتميز عليكم ، فان الله يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه،
وقام وجمع الحطب .

وباختصار، فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم محلى بصفات
الكمال المنقطعة النظير، أدبه ربه فأحسن تأديبه، حتى خاطبه
مثنيا عليه فقال : وانك لعلى خلق عظيم (٣٧) . وكانت هذه
الخصال وغيرها من الصفات الحميدة مما قربه الى النفوس ،
وحببه الى القلوب، وصيره قائدا تهوى اليه الافئدة ، فالان من
شكيمة قومه بعد الالباء، حتى دخلوا فى دين الله أفواجا .

٥ - انتشرت الدعوة فى المرحلة المكية التى دامت ١٣ عاما
بالطرق السلمية بواسطة الرسول والصحابة، ومن مميزات هذه
الفترة مايلى :

أ - الجلم والتسامح والعفو والصفح الجميل .

ب - عندما لم تؤت الطرق السلمية ثمارها المرجوة ، وحينما
حاول كفار قريش قتله بضربة رجل واحد، وأخرج من مكة
الى المدينة، عدل الرسول بوحى الهى طريقته فى الدعوة.
قال تعالى : ,,وان كادوا ليستفزونك من الأرض
ليخرجوك منها واذا لايلبثون خلافاك الا قليلا، (٣٨) .

ج - الأذن من الله بالقتال فى المرحلة المدنية للدفاع عن الدين الجديد والنفس : أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله . . . (٣٩) .

د - القتال أصبح فريضة على المسلمين: كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وانتم لاتعلمون (٤٠). لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدین درجة ، وكلاً وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدین أجراً عظيماً (٤١).
وكما نعلم أن الشروط الثلاثة التى وضعها الاسلام للجهاد هى :
(١) الاسلام (٢) دفع الجزية (٣) القتال

وفيما تبقى من البحث ، نذكر أهم الدروس المستفادة من سيرة النبى صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بالتغيير الاجتماعى .

الدروس المستفادة

النموذج الاسلامى فى التغيير الاجتماعى :

انطلاقاً من قول الله تعالى لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب (٤٢) ، يمكن تلخيص الدروس المستفادة من عملية التغيير الاجتماعى فى الاسلام والتى قام بها خاتم النبیین - عليه أفضل

الصلاة والسلام - فى عدة نقاط تكوّن فى مجملها النموذج الاسلامى فى التغيير الاجتماعى .

١ - لا توجد هناك قاعدة أساسية ترتبط برجل التغيير هل الافضل أن يكون من خارج المجتمع أو المنظمة أو من داخلها . الا انه من دراستنا هذه يمكن القول بأن اذا كان التغيير جذريا وشاملا مثلما هو الحال من الجاهلية الى الاسلام، فان القائد نادرا ما يأتى من الداخل . واذا ما أتى فان ذلك يستلزم أن يكون القائد من النوع الملهم Charismatic وان يكون مدعما بعون ومدد خارجى يزوده بالرؤيا السليمة والتصور الصحيح والمنهج الكامل الذى يمكنه من اداء رسالته بنجاح . لذا ، نجد ان دور الوحي الالهى فى قضية الانبياء والرسل هام جدا، اذ لولاه لما تمكن الرسل من ان ينجحوا فى التأثير والتغيير الشامل لمجتمعاتهم مهما كانت درجة اعدادهم أو قوة شخصيتهم فهم رسل اولاء ومصلحون اجتماعيون ثانيا .

٢ - التغيير عملية معقدة وصعبة للغاية ودائما ماتقابل بالمقاومة والمعارضة الشديدة وخاصة من أصحاب المصالح الذين تهتز مصالحهم نتيجة للتغيير والوضع الجديد . لذا ، يجب على رجل التغيير أن يتحلى بالصبر والاخلاق الكريمة الفاضلة وان يكون قدوة سالحة فى كافة سلوكه وتصرفاته . والرسول محمد كما اشرنا سابقا كان خلقه القرآن، وكان لا يأمر أصحابه بشيئ الا وطبقه على نفسه بادئ ذى بدء . وما احوجنا فى عصرنا هذا لهذا النوع من القائد الذى لا يريد لنفسه شيئا ويريد ان يعطى شعبه كل شيئ ولا يريد ان يقضى على الرشوة والفساد بقانون وضعى وانما بالقدوة الحسنة .

٣ - ونظرا لان فحوى التغيير الاجتماعى هو تغيير فى النفوس واصلاحها .. وهذا أمر ليس بيسير .. فان التدرج شئى مفروض ومرغوب فيه فهو الشئى الذى لفت انظار المفكرين الغربيين فى المنهج الاسلامى للتغيير الاجتماعى . فقد نزل القرآن على فترات ليعالج فيها مشاكل الساعة وكان الرسول الأمى بعد نزول كل آية يبدأ بتطبيقها على نفسه ثم يعلمها لاصحابه حتى يجيدها وبذلك استطاع الرسول فى فترة وجيزة ان يربى خلية كبيرة من العرب على تعاليم الاسلام الحنيف وان ينتقل بهم من عرب حفاة الى صانعى امجد حضارة عرفها التاريخ .

٤ - أهمية تقديم الخيارات البدائل المختلفة للناس حيث أن الاسلام يعلن للناس منذ البداية ,,لااكره فى الدين « (٤٣) و ,,لكم دينكم ولى دين « (٤٤) و ,,ان هو الا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم« (٤٥) وقوله تعالى ,, وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ..« (٤٦) . والدرس المستفاد هنا أن أى عملية للتغيير سواء كانت شاملة كاملة أو محدودة لايمكن ان تتم بالسوط والعنف والشدة ، بل يجب الايمان بحرية الاختيار و الفروقات الفردية والدليل على ذلك أن الثورات الدموية الكبيرة التى قامت فى العصر الحديث ليس لها أى أثر عميق بغد موت صاحبها لأنه صاحبها العنف والقسر والدم .

٥ - ويرتبط بعملية الخيارات والبدايل نقطة أخرى وهى ديموقراطية التغيير نفسه، فالتغيير القسرى المفروض من فوق لايمكن أن يدوم . لذا يجب المشاركة من القاعدة ، وقد دلت كثير من الآيات على اهمية الشورى فى الاسلام: وأمرهم شورى بينهم (٥٧) و شاورهم فى الأمر (٤٨) وان التغيير الذى يدوم يقوم على اسهامات وآراء واستشارة القاعدة ، حتى لو مات صاحب

الرسالة ورجل التغيير ألفت الناس متمسكين به لأنهم أسهموا في نجاحه وكانت لهم يد في أحداثه .

وقضية المشاورة هي في حد ذاتها من أهم ما يميز النموذج الاسلامي في التغيير، فالمنهج منهج الهى مستقى من الوحي ، لكن طريقة توصيله والاعلان عنه وصيانته وحفظه تمت بواسطة القاعدة الشعبية (Grass root) المقتنعة تماما بفائدته وجدواه وصلاحيته لكل زمان ومكان . فلقد كان الرسول اكثر بعدا عن التحكم والتسلط، يستمع الى اصحابه ويجادلهم ويستشيرهم ويعيش كواحد منهم واستطاع بمهارته أن يجذب الشباب والشيوخ من الرجال والنساء الذين وجدوا فيه قدوة حسنة للانسان .

٦- وتنبثق من النقطة السابقة وهي ديموقراطية التغيير والشورى ، الدور الذى تقوم به الجماعة المقربة (Critical Mass) من صاحب الرسالة فى أحداث عملية التغيير . ولا يمكن التغاضى عن الدور الفعال والخطير الذى قام به الصحابة كسفراء الى الملوك والقادة الأجانب ، كمعلمين مبادئ الاسلام لحديثى العهد بالاسلام، كمبشرين برسالة الاسلام الخالدة عبر البلدان، كمساندين لصاحب الدعوة فى السراء والضراء، والحرب والسلام ، وكنموذج وقدوة حسنة لغيرهم . والدرس المستفاد هنا ان عملية التغيير الجذرى لا يمكن ان يقوم بها فرد واحد حتى ولو كان الفرد نبيا مرسلا ، وان وجود الجماعة والصحابة المقربة عنصر أساسى فى نجاح عملية التغيير الشاملة والكاملة للمجتمع فى الاسلام .

٧- عملية القيادة ليست سهلة ، فكما رأينا من هذا البحث أن القيادة تسبقها عملية الاعداد والتهيئة لتحمل المسؤولية . فالرسول لم يبعث الا بعد اكتماله ٤٠ عاما حيث اكتسب السمعة

الطيبة واشتهر بين قومه بالأمانة وحسن الخلق ، ومارس شتى أنواع الأعمال من رعى وتجارة، واكتسب الخبرة والحنكة لأن الدور الذى قام به يتطلب كل ذلك .

ومن ذلك نستنتج ان القائد يجب أن يعد وان عملية الاعداد لتحمل مسؤولية القيادة مهم جدا، فالقيادة تحتاج الى شخص محنك ، راسى ، خبير عركته الأيام وعركها لكى يقوم بدوره على أحسن مايرام . كما ان القائد مهما كانت صفاته وخصاله لابد أن يكون سلوكه مطابقا لاقواله .

٨ - رسوخ العقيدة والايمان العميق بالتغيير الذى يدعو اليه صاحب الرسالة أو رجل التغيير وبذل التضحيات الكبيرة بما فيها النفس والمال والولد فى سبيل انجاز المهمة التى أوكلت اليه . فقد عرضت قريش على محمد (صلى الله عليه وسلم) ان يصير اكثرهم مالا ، وان يكون ملكا عليهم، وكافة المغريات المادية الرخيصة، الا انه رفض كل ذلك وقال لعنه : ” والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه “ . ونحن نعتقد ان هذه الصفة هى ارفع صفة أجبرت كل اعدائه واصحابه على احترامه واجلاله ومكنته من الصمود فى وقت الشدة واليأس . ونستخلص من ذلك ان رجل التغيير لابد ان يكون مؤمنا بمنهجه وعقيدته ومستعدا ان يضحي بالمال والدم فى سبيل اعلائهما .

٩ - وترتبط بالنقطة السابقة، أهمية زهد الرسول وتعففه عن جميع ماعرض عليه من مال وزواج وملك فكانت اجابته مثل اجابات زملائه السابقين من الرسل : فان توليتم فما سألتكم من أجر ان اجرى الا على الله وأمرت ان اكون من المسلمين (٤٩) . وفى سياق آخر : وياقوم لا أسألكم عليه مالا ان أجرى الا

على الله . . . (٥٠) . ومن ذلك نستنتج أن أفضل نصح وأحسن تغيير وتوجيه هو الذى يتم مجاناً وليس لصاحبه فيه مصلحة شخصية مادية ودنيوية .

١٠ - الاختيار الاستراتيجى للوقت المناسب للشروع فى عملية التغيير والانتهاى منها . وهذا مهم جداً، فعلى القائد ورجل التغيير دراسة البيئة ومدى صلاحيتها لتقبل التغيير المقترح . ومع ان الرسول محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن له الخيار فى قضية التوقيت ، الا أن عملية التدرج فى الدعوة وانتقالها من حالة السرية الى الجهر ، ومن مكة الى المدينة لم تتم عشوائياً بل بتوفيق وبإذن من الله تعالى .

ونستنتج من ذلك ان التوقيت مهم جداً لرجل التغيير ، فدراسة البيئة وعناصرها تساعد على اختيار الوقت المناسب للتدخل لتكون النتيجة فى صالح الوضع الجديد .

١١ - الاختيار الاستراتيجى للوقت المناسب لعملية الخروج من دائرة الأضواء بعد انتهاء المهمة الموكلة للشخص . أيضاً ضرورة اختيار الخليفة ليكمل المشوار، وقد تم ذلك عند وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم واختيار الخليفة أبوبكر الصديق ليكون خليفة يتابع المشوار الذى بدأه الرسول .

ونستنتج من ذلك درساً مهماً للمنظمات والمنشآت الحديثة المهمة بعملية التغيير وهو ان القائد او رجل التغيير يجب أن يخرج من دائرة الاضواء بعد اكتمال مهمته مباشرة وان يترك المجال لدماء جديدة وتجارب أخرى تأخذ على عاتقها تكملة السير وتفسير المنهاج وتصحيح المسار وايضاح الرؤيا والتمسك بالتراث ،،اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً ،، (٥١) .

هو أمش

- ١ - ظهرت الكثير من الابحاث والدراسات التي تحاول تأصيل المعرفة الحديثة وردھا الى جذورها الاسلامية . ففي مجال الادارة على سبيل المثال لا الحصر ، ظهر كتاب بعنوان التنمية الادارية من وجهة نظر اسلامية (باللغة الانجليزية) ويقع في ٤٣٠ صفحة من تأليف الدكتور محمد البرعى ونشرته دار كيجان بول العالمية في لندن عام ١٩٨٥م . كما ظهر كتاب للمؤلف نفسه بالاشتراك مع د. عدنان عابدين بعنوان : الادارة في التراث الاسلامي مع حكم وأمثال للمسؤولين ورجال الأعمال (جده: مكتبة الخدمات الحديثة ، ١٤٠٧هـ) . وظهرت كتب أخرى في الادارة الاسلامية منها: الادارة في الاسلام للدكتور أحمد ابراهيم أو سن (دبي : المطبعة العصرية، ١٩٨١م) ، الادارة في الاسلام : الفكر والتطبيق للدكتور عبدالرحمن ابراهيم الضحيان (جدة : دار الشروق، ١٤٠٧هـ) ، الكفاءة الادارية في السياسة الشرعية للدكتور عبدالله بن أحمد قادري (جدة: دار المجتمع للنشر والتوزيع ، ١٤٠٦هـ) ، الخدمة المدنية على ضوء الشريعة الاسلامية : مدخل لنظرية للأستاذ محمد بن عبدالله الشباني (القاهرة : عالم الكتب، ١٣٩٧هـ)، الادارة في الاسلام للرائد محمد مهنأ القلي (جدة: الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ١٤٠٥هـ) نظام الحكم والادارة في الدولة الاسلامية منذ صدور الاسلام ، للاستاذ محمد بن عبدالله الشباني (القاهرة : عالم الكتب ، ١٣٩٩هـ) وكتاب الادارة في الاسلام اعداد الدكتور محمد فتحي محمود (الرياض : جامعة الملك سعود، ١٤٠٣هـ) وغيرها من الاصدارات الأخرى التي لايتسع المجال لذكرها جميعا . وان دل هذا على شئ فانما يدل على مدى الاهتمام بالرجوع الى الجذور الاسلامية الأصيلة في مجال حيوى وفعال مثل الادارة المعاصرة .
- ٢ - أنظر محمد على الصابوني ، النبوة والانبياء ، (لا يوجد اسم الناشر ولا مكان الطباعة) ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م من ص ٩٩ - ١٠٠ .
- ٣ - أنظر كتاب مايكل هارت ، الخالدون مائة : أعظمهم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ترجمة أنيس منصور طه ، القاهرة : المكتب المصري الحديث ، ١٩٧٤م . يقول هارت : ان النبي محمد كان أقوى الناس واعظمهم أثرا في تاريخ البشرية ويعتبر اعظم سياسى عرفه التاريخ ، فقد كان اميا يقود اميين وينشئ اكبر واعظم دولة على وجه التاريخ في زمن قياسي . فقد قال بالحرف الواحد ، ،... فقد استطاع هؤلاء البدو المؤمنون بالله وكتابه ورسوله ان يقيموا امبراطورية واسعة ممتدة من حدود الهند حتى المحيط الاطلسي . وهي أعظم امبراطورية أقيمت في التاريخ حتى اليوم . وفي كل مرة تكتسح هذه القوات بلدا، فانها تنشر الاسلام بين الناس . ص ١٦، وقال هارت عن الرسول : ،، انه المسؤول الأول والأوحد عن ارساء قواعد الاسلام، وأصول الشريعة والسلوك الاجتماعي والاخلاقي وأصول المعاملات بين الناس في حياتهم الدينية والدنيوية . كما ان القرآن الكريم قد نزل عليه وحده . وفي القرآن الكريم وجد المسلمون كل ما يحتاجون اليه في دنياهم وآخرتهم» . ص ١٧ . ثم قال في الختام : ،، فهذا الامتزاج بين الدين والدنيا هو الذي جعلني أو من بأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو اعظم الشخصيات أثرا في تاريخ الانسانية كلها . ،، ص ١٩ .

٤ - لا يتسع المقام هنا لسذكر المثات بل الآلاف من الدراسات التي وضعت عن سيرة محمد صلى الله عليه وسلم باللغتين العربية والانجليزية واللغات الأخرى ، لذا ننصح القارئ الكريم بالاتجاه الى السيرة الشريفة المتوفرة في المكتبات .
أما عن موضوع التغيير التنظيمي **Organization Development** فللأسف ، توجد القليل من الدراسات الميدانية باللغة العربية ، ومعظم الدراسات التي كتبت حول هذا الموضوع هي باللغة الانجليزية . أنظر الكتابين المذكورين في هامش ٥ ، ٦ ففي نهاية كل فصل توجد مراجع مهمة في هذا المجال .

٥ - ٦ انظر على سبيل المثال لا الحصر :

Edgar F. Huse, Organization Development and Change. 2nd edition. (St. Paul: West Publishing Company, 1980) p. 22.

Mark S. Plovnick, Ronald E. Fry and W. Warner Burke, Organization Development (Boston: Little, Brown and Company, 1982), pp. 5-10.

Michael Beer, Organization Change and Development: A Systems View, (Glenview, Illinois: Scott, Foresman and Company, 1980).

W. Warner Burke, Organization Development: Principles and Practices, (Boston: Little, Brown and Company, 1982).

٧ - بينما نجد ان الأنبياء منذ القدم قد مارسوا مهمة التغيير الاجتماعي على أفضل مايرام بتأييد من الله تعالى ، نرى ان دعوة الانبياء تختلف عن دعوة المصلحين أو القادة الذين يريدون احداث تغيير شامل في مجتمعاتهم، منشأتهم أو مؤسساتهم . ذلك ان دعوة الانبياء، وعلى رأسهم محمد صلى الله عليه وسلم ، لها خصائص و مميزات نوجزها فيمايلي :

- ١ - دعوة الانبياء (ربانية) أي بوحى وتكليف من الله .
- ٢ - ان الانبياء لا يطلبون اجرا على الرسالة بل يأخذون الاجر من الله .
- ٣ - اخلاص الدين لله سبحانه، وافراد العبادة له جل وعلا .
- ٤ - البساطة في الدعوة، وعدم التكلف والتعقيد .
- ٥ - وضوح الهدف والغاية في دعوة الأنبياء الكرام .
- ٦ - الزهد في الدنيا، واثار الآخرة على الحياة الدنيا .
- ٧ - التركيز على (عقيدة التوحيد) والتشديد في أمر الايمان بالغيب .

لمزيد من التفاصيل حول هذه الخصائص والمزايا، أنظر محمد على الصابوني سبقت الاشارة اليه، ص ٢٩ - ٤٨ .

٨ - أخرجه ابو داؤد وابن ماجه . أنظر : سنن أبي داؤد، الجزء الثاني، باب الزكاة ، حديث رقم ٢٦ (بيروت : دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٨٩هـ) من ص ٢٩٢ - ٢٩٤ .

أنظر أيضا : سنن ابن ماجه، الجزء الثاني ، كتاب التجارات ، باب بيع المزايمة، طبعة دار احياء التراث العربى ، دورة تاريخ ، صفحة ٧٤٠.

٩ - اعتمدنا فى هذا الجزء على كتاب الدكتور محمد رواس قلعه جى ، قرأة جديدة للسيرة النبوية،

(الكويت : دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع ، ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤م) ص ص ٤٣ - ٤٦

١٠ - سورة سبأ، آية ٢٨.

١١ - لمزيد من الاطلاع والنقاش حول هذه الأسئلة الجوهرية ، أنظر :

D. Katz and R. Kahn, The Social Psychology of Organizations. 2nd edition (New York: John Wiley & Sons, 1978).

١٢ - سورة النساء، آية ٧٩.

١٣ - سورة الأنبياء، آية ١٠٧.

١٤ - سورة سبأ، آية ٢٨.

١٥ - تذكر كتب السيرة النبوية الشريفة أن الرسول بعث ابن عمه جعفر الى النجاشى ، والصحابى

حاطب بن ابى بلتعة الى المقوقس ملك مصر والاسكندرية، وعبدالله بن حذافة السهمى الى

كسرى ملك فارس ، ودحية بن خليفة الكلبي الى قيصر ملك الروم ، والعلاء بن الحضرمى الى

منذر بن ساوى حاكم البحرين ، وسليط بن عمرو العامرى الى هوزة بن على صاحب اليمامة ،

وشجاع بن وهب من بنى أسد بن خزيمة الى الحارث ابن ابى شمر الغسانى صاحب دمشق،

وعمر بن العاص الى ملك عمان . لمزيد من التفاصيل، أنظر على سبيل المثال : صفى الرحمن

المباركفورى ، الرحيق المختوم مكة : رابطة العالم الاسلامى ، ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠م، من ص ٣٩٢ - ٤٠٥

١٦ - محمد الصادق عرجون، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم : منهج ورسالة، بحث وتحقيق .

٤ مجلدات، دمشق: دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ (١٩٨٥م) .

وهذا الكتاب الجامع هو من أفضل ماكتب عن سيرة النبى محمد صلى الله عليه وسلم اذ راعى فيه

المؤلف البحث والتحقيق وتمحيص الحوادث والوقائع وازالة الشوائب منها . ويقع فى حوالى

٢٦٦٠ صفحة من القطع الكبير .

١٧ - محمد الصادق عرجون ، نفس المصدر، المجلد الأول ، من ص ٤٠ - ٥١ حيث ناقش فى فصل

ب عنوان (البيئة الطبيعية والاجتماعية لحياة محمد صلى الله عليه وسلم) تعرض فيه لمكة ومكانتها،

الأوثان ، ومظاهر بلادة الوثنية الجاهلية، واخلاق العرب الجاهلية وتأثير البيئة عليها .

١٨ - لمزيد من التفاصيل حول هذه الموضوعات ، يراجع كتاب أبى بكر جابر الجزائرى ،، منهاج مسلم،

الطبعة الثامنة ، بيروت : دارالفكر ، ١٣٩٦ هـ/١٩٧٦م . حيث احتوى على العقائد الاسلامية .

والآداب ، والاخلاق والعبادات والمعاملات . ويقع حوالى ٤٨٨ صفحة من القطع المتوسط .

١٩ - سورة النحل آية ٩٧ .

٢٠ - يرجع فى ذلك الى هذه الكتب والتي هى غيض من فيض فى مجال السيرة النبوية الشريفة :

السيرة النبوية لعبدالرحمن عبدالله بن هشام،

السيرة النبوية للسيد احمد وبنى دحلاك،

السيرة الحلبية لعلى بن برهان الدين الحلبي الشافعى،

حياة محمد : لمحمد حسين هيكل ،

محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لمحمود رضا ،
عبقرية محمد : لعباس محمود العقاد ،

محمد صلى الله عليه وسلم : الانسان الكامل لمحمد بن علوى المالكي الحسيني .

سورة الشعراء آية ٢١٤ . - ٢١

قال الله فى محكم كتابه (وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا - ٢٢

شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . (البقرة : ٢٣) ، وقال تعالى (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لارىب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين . (يونس :

٢٧ - ٢٨) . وغيرها من الآيات القرآنية الكريمة والتي يتحدى الله فيها الانس والجن على الاتيان بمثل هذا القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن

يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (الاسراء : ٨٨) .

من الأسئلة الكثيرة التى سألتها الصحابة وغيرهم للنبي محمد صلى الله عليه وسلم نورد بعضا - ٢٣

منها حيث انها تدور حول أمور تتعلق بالحياة الدنيا والبعض الآخر يتعلق بأمر غيبية أو تدور حول الآخرة .

.. يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى اكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك ، وآتينا موسى سلطانا مبينا .. (النساء : ١٥٣) .

.. يسألك الناس عن الساعة . قل انما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا .. (الاحزاب : ٦٣) .

.. يسألون أيان يوم الدين ؟ .. (الذريات : ١٢)

.. يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج .. (البقرة : ١٨٩)

.. يسألونك ماذا ينفقون ، قل ما انفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن

السييل وما تفعلوا من خير فان الله به عليم .. (البقرة : ٢١٥)

.. يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه، قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد

الحرام واخراج أهله منه اكبر عند الله ، والفتنة اكبر من القتل ... (البقرة : ٢١٧)

.. يسألونك عن الخمر والميسر قل فيها اثم كبير ومنافع للناس ، واثمها اكبر من نفعها،

ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو، كذلك بين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون .. (البقرة : ٢١٩)

.. يسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن

فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين .. (البقرة :

٢٢٢).

.. يسألونك ماذا أحل لهم، قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح ... (المائدة : ٤)

.. يسألونك عن الساعة أيان مرساها، قل انما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها الا هو نقلت فى

السموات والأرض لا تأتيكم الا بغتة ، يسألونك كأنك حفى عنها قل انما علمها عند الله ولكن

اكثر الناس لا يعلمون .. (الاعراف : ١٨٧) .

.. يسألونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم واطيعوا الله

ورسوله ان كنتم مؤمنين .. (الانفال : ١)
 «ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا» (الاسراء : ٨٥).
 ويسألونك عن ذى القرنين، قل سأتلوا عليكم منه ذكرا .. (الكهف : ٨٣)
 «ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا، فيذرها قاعا صفصفا ، لا ترى فيها عوجا ولا
 أمتا» . (طه : ١٠٥ - ١٠٧) .
 « يسألونك عن الساعة أيان مرساها .. (النازعات : ٤٢)

- ٢٤ - سورة المائدة ، آيات ٩٠ - ٩١
 ٢٥ - سورة الرعد ، آية ١١
 ٢٦ - سورة الشعراء، آيات ٧١ - ٧٤
 ٢٧ - سورة الزخرف ، آيات ٢٢ - ٢٣
 ٢٨ - سورة فصلت ، آية ٣٠
 ٢٩ - سورة التوبة آية ٧٢ .
 ٣٠ - سورة النحل آية ٩٧
 ٣١ - أنظر هامش رقم ٢٢ لبيان الآيات التي يتحدى فيها الله عزوجل فصحاء الانس والجن لمحاكاة القرآن .
 ٣٢ - سورة التوبه ، آية ٤٠
 ٣٣ - سورة التوبة ، آية ٢٦
 ٣٤ - سورة الاسراء، آية ٣٤
 ٣٥ - سورة الكهف ، آية ١١٠
 ٣٦ - لمزيد من القاء الضوء على الخاصة الكاريزمية او الزعامة الملهممة، أنظر نيفين عبدالخالق مصطفى ، «قيادة الرسول وخلافته والانماط المثالية للسلطة لماكس فيبر : دراسة مقارنة» مجلة العلوم الاجتماعية ، المجلد ١٤ العدد شتاء ١٩٨٦ من ص ١٣٥ - ١٥٣ .
 ٣٧ - سورة القلم ، آية ٤
 ٣٨ - سورة الاسراء آية ٧٦
 ٣٩ - الحج ، آيات ٣٩ - ٤٠
 ٤٠ - البقرة ، آية ٢١٦
 ٤١ - النساء، آية ٩٥
 ٤٢ - يوسف ، آية ١١١
 ٤٣ - البقرة آية ٢٥٦
 ٤٤ - الكافرون، آية ٦
 ٤٥ - التكوير ، آيات ٢٧ - ٢٨
 ٤٦ - الكهف، آية ٢٩
 ٤٧ - الشورى ، آية ٣٨
 ٤٨ - آل عمران ، آية ١٥٩
 ٤٩ - يونس ، آية ٧٢
 ٥٠ - هود ، آية ٢٩
 ٥١ - المائدة ، آية ٣